الجزء الاول
المجلد السادس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

رجب ١٤٠٥ هـ
آذار ١٩٨٥ م

مفهوم الفصاحة لغةً واصطلاحاً

الدكتور محمد جابر فياض
كلية الآداب – جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحديث عن الفصاحة كالحديث عن البلاغة معاد مكرور ، والحاجة الى معاودته وتدقيق النظر فيه كالحاجة اليها في البلاغة صنوها إن لم تكن أشد منها لأن المتحدثين عن البلاغة كانوا قد ذهبوا إلى أنها من البلوغ بمعنى الوصول والانتهاء، من بلغ المكان ، أو الزمان ، أو المنزلة بلوغاً ، بمعنى وصل إليها ، وأبلغه الخبر يبلغه إبلاغاً : أوصله إليه . وربطوها بهذا الأصل اللغوي وحصروها في دلالته . وأجمعوا على هذا المدرجة صرنا معها معذورين في تلقيها وتلقينها على ما ورثناها عليه . إذ ماجدوى إعادة النظر ، وما الذي يمكن أن تفضي إليه فيما أجمعوا عليه . ومع هذا فقد رأينا أنها أفضت بنا الى إمكان القول بأن البلاغة من البلوغ ، بمعنى النضج والاكتمال ، كالبالغ من كل شيء ، وليس من مجرد الوصول والانتهاء.

فاذا كان الاجماع قد حال بيننا وبين معاودة النظر في البلاغة حقبة ، وهيأ لنا أن ليست بنا حاجة إليها ، فان اختلاف المتحدثين عن الفصاحة فيما ذهبوا إليه فيها ، خير ما يؤيد الحاجة الى معاودة النظر ، ويدفع إليها ، ويغري بها ، فما الذي يمكن أن نعتذر به في الركون إلى أي مما قيل فيها من غير ما موازنة دقيقة بينه ، وبين ما يخالفه ؟ ؟ فلقد تأرجحت الفصاحة

بين الابانة والخلوص، فمن المتحدثين عنها من ذهب إلى أنها من الابانة والوضوح والظهور ، ومنهم من ذهب إلى أنها من الخلوص والصفاء والنقاء . .

ولقد ركن اكثر المحدثين والمعاصرين من المعنيين بالبلاغة — إن لم أقل كلهم — الى الابانة من غير ما موازنة ، ولا تمحيص ، ولا تدقيق ، ولا إعادة نظر ، حتى لكأن دلالة الفصاحة عليها بديهية من البديهيات أو مسلمة من المسلمات ، من العبث فحصها وتدقيقها أو موازنتها بغيرها ، وفاتهم — بهذا الركون — الاحاطة بما قيل فيها ، وما فيه من خلاف ، كما فاتهم الوقوف على حقيقة مفهومها .

فالفصاحة ليست من مجرد الابانة والوضوح والظهور ، ولو أنها كذلك لكان الناس كلهم فصحاء ، وليس الأمر كذلك فهي من الخلوص والصفاء والنقاء ، ودلالتها على الابانة والوضوح إنما هي تالية لدلالتها على الخلوص ، متوقفة عليها ، فهي من قبيل تحصيل الحاصل ، فالاشياء لاتتضح وتظهر وتبين إلا إذا خلصت مما يشوبها أو يحجبها .

فالفصاحة خلوص الكلام والمتكلم مما يشينهما من عيوب الكلام والنطق ومن هنا كانت نعتاً حميداً ، موقوفاً على أناس ، دون أناس وكلام دون سواه ، واشترط في الكلام والمتكلم ما اشترط من خلوص ، ولم نبتدع للفصاحة هذه الدلالة ابتداعاً ولم نصطنعها اصطناعاً ، ولكنها الدلالة التي اسفر عنها التحقيق اللغوي والاستقراء الدقيق لما قاله فيها علماؤنا الأعلام ، وفحصه وتدقيقه .

وهذا الذي انتهينا إليه في كل من البلاغة والفصاحة ، إنما يؤكد ما اشرنا إليه من جدوى معاودة النظر فيما قيل في المسائل البلاغية — مع كثرته — وفحصه وتدقيقه والانتهاء منه الى ما يمكن الركون إليه .

ولله الحمد من قبل ومن بعد

الفصاحة لغة

ذهب ابن فارس – ٣٩٥ هـ – محقاً – إلى أن « الفاء والصاد والحاء : أصل يدل على خلوص في شيء ، ونقاء من الشوب . من ذلك اللسان الفصيح : الطليق . والأصل أفصح اللبن : سكنت رغوته . وأفصح الرجل : تكلم بالعربية . وفصح : جادت لغته حتى لا يلحن . . . » (١) فوضع يده بهذا على دلالة المادة اللغوية كلها ، ونص صراحة على الخلوص والنقاء ، وربط بهذه الدلالة كل ما جاء من مفردات المادة . فاللسان الفصيح : الطليق ، لخلوصه من كل ما يحول بينه وبين الطلاقة ، واللبن الفصيح : الذي سكنت رغوتـــه ، وتلاشت بعد أن كانت تحجبه عن الناظر إليه ، وأفصح الرجل : إذا تكلم بالعربية ، أي خلصت عربيته من الخطأ واللحن والعجمة وغيرها ، مما قد يشوبها أو يشينها . يؤيد هذا ويعززه قوله : « وفصح : جادت لغته حتى لايلحن » فنص صراحة على الجودة لما تقتضيه من خلوص ونقاء .

ولم يستثن من دلالة المادة على الخلوص والنقاء . غير عيد الفصح ، حيث قال « . . . ومما ليس من هذا الباب ، الفصح : عيد النصارى – . يقال أفصحوا : جاء فصحهم . . . » . (٢)

ولم ينفرد ابن فارس بهذا وحده ، بل تابعه فيه الراغب الأصفهاني –٥٠٢ هـ حيث قال : « الفصح : خلوص الشيء مما يشوبه . وأصله من اللّبن . يقال : فصح اللبن وأفصح ، فهو مفصح : : إذا تعرى من الرغوة ، وقد روى :

* وتحت الرغوة اللبن الفصيح *

ومنه استعير فصح الرجل : جادت لغته ، وأفصح : تكلم بالعربية .وقيل : الفصيح : الذي ينطق ، والاعجمي : الذي لاينطق . قال تعالى : وأخي هارون ،

(١) المقاييس – مادة فصح
(٢) الموضع ذاته

هو أفصح مني لسانا » [٣٤ القصص ٢٨] . وعن هذا استعير أفصح الصبح : إذا بدا ضوؤه . . » (٣)

واذا كان الراغب الاصفهاني قد أخذ هذا عن ابن فارس ، أو تابعه فيه ، فان دلالة المادة اللغوية على الخلوص والنقاء والصفاء ، قد بدت ظاهرة في المعاجم التي سبقتهما ، والتي جاءت بعدهما ، فلقد طالعتنا هذه الدلالة واضحة في معجم العين فقال الخليل — ١٧٥ هـ : « المفصح من اللبن ؛ : اذا ذهب عنه اللّبأ ، وكثر محضه ، وَقَلَّتْ رغَوته . . » (٤) ولايكون كذلك الاإذا خلص من اللّبأ والرغوة . فاللبن المفصح والفصيح : هو اللبن المحض الخالص .

وقد نقل أبو عبيد — ٢٢٤ هـ عن الاصمعي — ٢١٦ هـ أنّ « أول اللبن اللِّبَأُ ، ثم الذي يليه المفصح. يقال : أفصح اللبن إذا ذهب عنه اللِّبَأُ » (٥).

ونقل الأزهري — ٣٧٠ هـ عن ابن شميل — ٢٠٤ هـ قوله : « هذا يوم فصح كما ترى ، والفصح : الصحو من القُرِّ : اذا لم يكن فيه قُرٌّ » (٦) .

وقال الجوهري — ٣٩٩ هـ : « وأفصحت الشاة : إذا انقطع لبؤها ، وخلص لبنها . وأفصح الرجل من كذا : إذا خرج منه » (٧) فنص على الخلوص بأحرفه . والى مثل هذا ذهب الزمخشري — ٥٣٨ هـ ، فقال : « سقاهم لبناً فصيحا : وهو الذي أخذت رغوته ، أو ذهب لبؤه وخلص منه . وفصح اللبن ، وأفصح ، وفَصَّح . وأفصحت الشاة : فصح لبنها .

ومن المجاز : سرينا حتى أفصح الصبح ، وحتى بدا الصباح المفصح . وهذا يوم مفصح ، وفصح : لاغيم فيه ، ولا قر . وانتظر نفصح من شتائنا :

---

(٣) المفردات — مادة فصح
(٤) العين — المادة ذاتها
(٥) التهذيب — المادة ذاتها
(٦) الموضع ذاته
(٧) الصحاح — مادة فصح

أي نخرج ونتخلص . . . وأفصح العجمي : تكلم بالعربية ، وفصح : انطلق لسانه بها وخلصت لغته من اللكنة » (٨) .

وفي اللسان : « قال اللحياني – ٢٣٤ هـ : أفصحت الشاة : إذا انقطع لبؤها ، وجاء اللبن بعد . وربما سمي اللبن فصحا . وفصيحا . وأفصح البول : كأنه صفا، حكاه ابن الأعرابي – ٢٣٨ هـ » (٩) .

وجاء في القاموس : « . . . فصح ككرم ، فهو فصيح . وفصح من فصحاء وفصاح وفُصُح ، وهي من فصاح وفصائح ، إذ اللفظ الفصيح : مايدرك حسنه بالسمع . . . ويوم فصح – بالكسر – ومفصح : بلا غيم ولاقر . وأفصح اللبن ذهبت رغوته ، كفصح . أو انقطع اللبأ عنه ، الشاة خلص لبنها ، البول صفا » (١٠) وهكذا ، فلا أراهم ذكروا البيان والوضوح والظهور إلا لانها نتائج الخلوص والصفاء والنقاء ، فالاشياء لاتظهر ولاتتضح وتبين إلابعد خلوصها مما يشوبها أو يحجبها ، فالفصاحة الخلوص والصفاء والنقاء ، اكثر من كونها الابانة والوضوح والظهور .

الفصاحة من المعنى اللغوي الى الاصطلاحي

اذا كان التحقيق اللغوي قد أفضى بنا الى أن الفصاحة ، إنما هي الصفاء والنقاء وخلوص الكلام مما يشوبه أو يشينه ، وأنهم لم يفسروها بالابانة والوضوح والظهور إلا لأن دلالة هذه الألفاظ على تلك من قبيل تحصيل الحاصل ، فان النصوص الكثيرة التي وردت فيها الفصاحة أو التي تولت تفسيرها إنما تمكن هذا الذي انتهى اليه التحقيق اللغوي وتعززه ، ولقد ورد اللفظ في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي

(٨) الاساس – مادة فصح
(٩) اللسان – المادة ذاتها
(١٠) القاموس – المادة ذاتها

ردءاً يصدقني ، إني أخاف أن يُكَذِّبونِ * » [٣٤ القصص ٢٨] . فقال أبو عبيدة — ٢٠٨ هـ :

« لأن موسى كان في لسانه عقدة . ويقال للفرس والبعير إذا كان صافي الصهيل وصافي الهدير : إنه لفصيح الصهيل ، وإنه لفصيح الهدير . » (١١) فالفصاحة : الصفاء الذي ذكره ، ونص عليه ، وكرر ذكره ، واحتج له، ودلل عليه بما في صهيل الفرس وهدير البعير .

فلو كانت الفصاحة مجرد الابانة والظهور والوضوح لكان الصهيل والهدير فصيحين دائماً عند صفائهما أو عدم صفائهما .

ولو لم تكن الفصاحة الصفاء والنقاء لما فسر الطبري — ٣١٠ هـ الأفصح بالأحسن واللسان بالبيان فقال : « وأخي هارون هو أفصح مني لساناً . يقول : أحسن بياناً عما يريد أن يبينه . . » (١٢) .

كما لم يكن الفصيح — في تفسير الزمخشري — ٥٣٨ هـ — المنطيق ذا العارضة، الذي لقوله من التأثير في نفوس المخاطبين وما للأدلة والبراهين العلمية في تقرير الأقوال النظرية ، فقد ذهب الى القول :

« ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار ، كما يفعل الرجل المنطيق ذوالعارضة . فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى الى قوله : وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ؟ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لالقوله صدقت ،

---

(١١) مجاز القرآن — ١٠٤/٢

(١٢) تفسير الطبري — ٤٧/٢٠

فان سحبان وباقلاً يستويان فيه . » (١٣) فالفصاحة — عنده هنا — هي البلاغة.

ونقل ابن عبد ربه — ٣٢٨ هـ عن الأصمعي — ٢١٦ هـ أنه قال :

« قال معاوية — ٦٠ هـ يوماً لجلسائه : أي الناس أفصح ؟ ؟ فقال رجل من السماط : ياأمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رتة العراق ، وتياسروا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن شنشنة تغلب ، وليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال من هم ؟ قال : قومك ياأمير المؤمنين . قال : صدقت فممن أنت ؟ قال من جَرْم . .

قال الاصمعي : جَرْمٌ فصحى الناس . » (١٤) وجاء بتفسير المبرد — ٢٨٦ هـ — لهذه العيوب وغيرها من عيوب النطق فقال :

قال ابو العباس محمد بن يزيد النحوي : التمتمة في النطق : التردد في التاء. والفأفأة : التردد في الفاء. والعقلة : هي التواء اللسان عند ارادة الكلام . والحبسة : تعذر الكلام عند إرادته . واللفف : ادخال حرف في حرف . والطمطمة : أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم . واللكنة : أن تعترض عند الكلام اللغة الأعجمية . . . واللثغة : أن يعدل بحرف الى حرف . والغُنَّة : أن يشرب الحرف صوت الخيشوم ، والخُنَّة اشد منها . والترخيم : حذف الكلام . . . وأما الرتّة ، فانها تكون غريزة . . ويقال إنها تكثر في الأشراف . وأما الغمغمة ، فانها قد تكون في الكلام وغيره ، لأنها صورة لايفهم تقطيع حروفها . وأما كشكشة تميم ، فان بني عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث ، فوقفت عليها ، أبدلت منها شينا لقرب الشين من الكاف في المخرج . . . » (١٥) .

---

(١٣) الكشاف — ٣٨٠/٢

(١٤) العقد الفريد — ٤٧٥/٢ — ٤٧٦

(١٥) نفسه ٤٧٦/٢

ولو لم تكن الفصاحة صفاء الكلام وخلوصه من هذه العيوب وأمثالها ، لما أجيب معاوية بهذا الذي أجيب به فارتضاه وأقرّه .

ولقد تحدث الجاحظ — ٢٥٥ هـ — عن كل هذه العيوب واشباهها ، وفصل القول فيها ، وأورد الشواهد لها من الشعر والنثر والحوادث والأخبار ، وملأ البيان والتبيين — مع ضخامته — بما يزين الكلام ويشينه ، فجاء اسمه وفقا لمسماه فكان — بحق — كتاب بلاغة وفصاحة وبيان وتبيين على طريقة الجاحظ ونسجه وله أثره الواضح في هذه الدراسات قديما وحديثا ، فكان — ومايزال — خير معين للدراسات الأدبية عامة والبلاغية خاصة ، غير أن الجاحظ — شأنه شأن غيره ممن سبقه وعاصره — لم يفرق — أو لم يعن بالتفريق — بين البلاغة والفصاحة ، فالبلغاء هم الفصحاء وهم أرباب البيان ، ومعروف أن المصطلحات البلاغية لم تكن قد استقرت حدودها في عهده كما أن ماجاء به عن لفظ الفصاحة أقل بكثير مما جاء به عن لفظ البلاغة ، ولم أقف له على ماقيل فيها ، ولاما اختاره من هذه الأقوال على نحو ما رأيناه في البلاغة فمن المجازفة القول بأنه عرّفها أو فرّق بينها وبين البلاغة والبيان مع أنه تحدث عن الفصاحة في تقسيمه الحيوان الى فصيح وأعجم فقال :

« ثم لايخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم . . . والفصيح هو الانسان ، والأعجم كل ذي صوت لايفهم إرادته إلا ماكان من جنسه . ولعمري إنا نفهم عن الفرس والحمار والكلب والسنور والبعير ، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوده ، كما نفهم إرادة الصبي في مهده ، ونعلم — وهو من جليل العلم — أن بكاءه يدل على خلاف مايدل عليه ضحكه . وحمحمة الفرس عند رؤية المخلاة ، على خلاف ما تدل عليه حمحمته عند رؤية الحجر ، ودعاء الهرة الهر خلاف دعائها لولدها وهذا كثير .

والانسان فصيح وان عبرّ عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية ،

وليس العربي أسوأ فهماً لطمطمة الرومي لبيان اللسان العربي . فكل انسان من هذا الوجه يقال له فصيح . فاذا قالوا : فصيح وأعجم فهذا هو التأويل في قولهم أعجم . وإذا قالوا : العرب والعجم ، ولم يلفظوا بفصيح وأعجم ، فليس هذا المعنى يريدون، انما يعنون أنه لا يتكلم بالعربية ، وأن العرب لاتفهم عنه » (١٦) فهو في هذا كله مفسر للمعنى اللغوي المراد بأعجم والعجم أي بين قول العرب (فصيح وأعجم) وقولهم « العرب والعجم » لا اكثر . ويؤيد هذا قوله قبل هذا الذي أورده بقليل : « ونحن في هذا الموضع انما نعبر عن لغتنا . وليس في لغتنا إلاماذكرنا »(١٧) وقوله أيضاً : « إلا أننا في هذا كله نتبع الاسماء القائمة المعروفة، البائنات بأنفسها، المتميزات عند سامعيها من أهل هذه اللغة، واصحاب هذا اللسان ، وإنما نفرد ماأفردوا ، ونجمع ماجمعوا » (١٨) وليس في هذا كله شيء مما نحن بصدده ، ولم يتجاوز به المعنى اللغوي الوضعي الموروث مذ وضعت اللغة ، . فليس هناك من يمكنه أن يباعد بين الابانة والفصاحة .

ومثل هذا يمكن أن يقال في قوله : « ومن القصاص : موسى بن سيار الاسواري، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به . فتقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها بالعربية ، ثم يحوّل وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين »(١٩) .

فالفصاحة — عنده — الابانة ، وقد أناب الأَبْيَن مناب الأفصح . كما أنه جمع بين الابلاغ والابانة والافصاح في قوله : « وسأل الله عز وجل موسى ابن عمران — عليه السلام — حين بعثه الى فرعون بابلاغ رسالته ، والابانة

(١٦) الحيوان — ٣١/١ — ٣٢
(١٧) نفسه ٢٦/١
(١٨) نفسه — ٢٧/١
(١٩) البيان والتبيين — ٣٦٨/١

عن حجته ، والافصاح عن أدلته ، فقال — حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه ، والحبسة التي كانت في بيانه — « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » [٢٧ طه ٢٠] .. وقال موسى — صلى الله عليه وسلم — « وأخي هارون هوأفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردءً يصدقني » [٣٤ القصص ٢٨] . . . . رغبة منه في غاية الافصاح بالحجة ، والمبالغة في وضوح الدلالة ، لتكون الاعناق إليه أميل ، والقول عنه أفهم ، والنفوس إليه اسرع ، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة ، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة » (٢٠) .

فهو هنا — وان جمع بين الفصاحة والبلاغة والبيان — قد جاء بما لايمكن أن يقصر على مجرد الابانة ، أويحصر فيها ، عارية من حذق القول ، والمهارة في صياغته ، والتأثير في نفوس السامعين وعقولهم . ويعزز هذا قوله :

« ومدح القـرآن بالبيان والافصاح ، وبحسن التفصيل والايضاح ، وبجودة الافهام ، وحكمة الابلاغ » (٢١) .

فالجاحظ لم يفته ما تتطلبه الفصاحة والبيان والبلاغة من حذق في تصفية الكلام وتنقيته ، ومهارة في نسجه وصياغته ، وقوله في الشعر انه صياغة وضرب من التصوير معروف ، وإحاطته بما قيل في الفصاحة والبلاغة مشهورة غير منكورة ، ومما نقله فيها قوله : « وكان يقال : أفصح الناس اسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة . والبلاغة : اصابة المعنى والقصد الى الحجة مع الايجاز ، ومعرفة الفصل من الوصـل » (٢٢) .

ولكن — مع هذا كله — ليس انا أن نتقول عليه مالم يقله ، فنزعم أنه عرّف هذه المصطلحات ، ووضع لها حدودها ، وأحكم التفريق بينها . ولهذا قال أبو

(٢٠) البيان والتبيين — ١/٧
(٢١) نفسه — ١/٨
(٢٢) البلاغة والايجاز — ٢٣

هلال العسكري : « .. وكان اكبرها واشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمري كثير الفوائد ، جمّ المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة وما حواه من اسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة . إلا أن الابانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، منتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة ، لاتوجد إلابالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير . فرأيت أن أعمل كتابي هذا ، مشتملاً على جميع مايحتاج اليه في صنعة الكلام نثره ونظمه » (٢٣) .

ولولا تواضعه واكباره لما جاء به الجاحظ في صنعة الكلام ، لقال اكثر من هذا الذي قاله ، في الحدود خاصة ، فما استقر للحدود قرار في عهد الجاحظ ولا في عهد العسكري نفسه ، على النحو الذي انتهت إليه عند متأخري البلاغيين وان كانت دلالاتها العامة معروفة غير مجهولة حتى في العهود التي سبقت عهديهما.

وذهب ابو هاشم الجبّائي عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب — ٣٢١ هـ : الى أن الفصاحة جزالة اللفظ وحسن المعنى ، قال القاضي عبد الجبار بن أحمد الاسدآبادي — ٤١٥ هـ : « « قال شيخنا (أبو هاشم) إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه ، وحسن معناه ، ولابد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً ، فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين ، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحداً وتقع المزية في الفصاحة ، فالمعتبر ما ذكرناه ، لانه الذي يتبين في كل نظم وكل طريقة ، وانما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء ، يسبق

(٢٣) الصناعتين — ٤ — ٥

إليه ، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه في ذلك النظم ، ومن يفضل عليه يَفْضُلْهُ في ذلك النظم . . » (٢٤)

ويبدو أنَ أبا هلال العسكري إنما أشار بقوله « وشهدت قوماً يذهبون الى أن الكلام لايسمى فصيحا حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة » (٢٥) الى أبي هاشم الجبائي ومن ذهب مذهبه من المعتزلة .

وأما ابن وهب — ٣٣٧ هـ فقد ذهب الى أن الفصاحة في الاصل الابانة ، غير أنه لم يقصرها على مجرد الاعراب عن المعنى كيفما اتفق حيث قال :

« . . فان أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى . والبليغ ما بلغ المراد ، ومن ذلك اشتقا ، فأفصح الكلام : ما أفصح عن معانيه ، ولم يحوج السامع الى تفسير له ، بعد أن لايكون كلاماً ساقطاً ، ولا للفظ العامة مشبها . . » (٢٦) وهكذا اشترط في الكلام الفصيح خلوصه مما يشوب كلام العامة من شوائب ، وما يعتري ساقط الكلام من عيوب ، فضلاً عما تقتضيه الفصاحة من الابانة والاعراب عن المعنى . وأضاف قائلاً :

« وأما الفصيح من الكلام . فهو ماوافق لغة العرب ، ولم يخرج عماعليه أهل الأدب ، ولتصحيح ذلك وضع النحو ، ولجمعه وضعت الكتب في اللغة ، وذكر المستعمل منها ، والشاذ ، والمهمل . وحق من ينشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم ، ولايخرج عن جملة ألفاظهم ، ولايقنع من نفسه بمخالفتهم ، فيخطئوه ويلحنوه .

واللحن ما خالف العربية ، وخرج عن استعمال أهلها ، ومابني عليه إعرابها ، وهو معيب عند الادباء في الجملة ، وعلى من يأخذ نفسه بالاعراب ، ويتكلم

---

(٢٤) المغني — ١٦ / ١٩٧
(٢٥) الصناعتين — ٨
(٢٦) البرهان — ٢٠٦

بالغريب عن لغة الاعراب أعيب . ويروى أن عمر – رضي الله عنه – كان يضرب على اللحن . فاما العرب فاذا لحن أحدهم لقربه من الحاضرة ، ونزوله على طريق السابلة سقطت عند أهل اللغة منزلته ورفضت لغته .

وإنما يصح الاعراب لأحد الرجلين : اما اعرابي بدوي ، قد نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة والاصابة ، فيتكلم على حسب عادته وسجيته ، ومتى خوطب باللحن لم يفهمه . . . واما للمولد الذي قد تأدب ، ونظر في اللحن واللغة ، وأخذ بهما نفسه ، ومرن عليها لسانه ، حتى صار ذلك عادة له . فاما لغيرها فليس يصح إعراب .

وربما اغتفر في دهرنا هذا اللحن للانسان في كلامه لكثرة اللحن في الناس، وإنه قد فشا وعظم ، وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجم والأنباط وسائر الأجناس . فأما في الكتاب فغير مغتفر له ذلك ، لان الطرف يتكرر نظره فيه والروية تجزل في إصلاحه..» (٢٧) فالكلام الفصيح هو الكلام العربي الخالص.

وجمع أبو هلال العسكري . ٣٩٥ هـ غير قليل مما قيل في الفصاحة فقال : « . . فأما الفصاحة فقد قال قوم : إنها من قولهم : أفصح فلان عما في نفسه ، إذا أظهره .

والشاهد على أنها هي الاظهار ، قول العرب : أفصح الصبح : إذا أضاء ، وأفصح اللبن : إذا انجلت عنه رغوته فظهر ، وفصح أيضاً . وأفصح الأعجمي : إذا أبان ، بعد أن لم يكن يفصح ويبين ، وفصح اللحان : إذا عبرعما في نفسه ، وأظهره على جهة الصواب ، دون الخطأ .

واذا كان الأمر على هذا ، فالفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منها إنما هو الابانة عن المعنى ، والاظهار له

(٢٧) البرهان – ٢٥٢ – ٢٥٣

وقال بعض علمائنا ، الفصاحة : تمام آلة البيان ، فلهذا لايجوز أن يسمى الله تعالى فصيحا ، إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة ، ولايجوز على الله تعالى الوصف بالآلة . ويوصف كلامه بالفصاحة ، لما يتضمن من تمام البيان. والدليل على ذلك أن الألثـــغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف . وقيل زياد الأعجم لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف ، وكان يعبر عن الحمار بالهمار ، فهو أعجم وشعره فصيح لتمام بيانه . . » (٢٨)

وقد سبق أن وقفنا على ما نقله في التفريق بين البلاغة والفصاحة . غير أنه لاغنى لنا هنا — عن إعادة قوله :

« . . وقد يجوز — مع هذا — أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا ، إذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره ، ولا فجّ ، ولا متكلف وخم . ولا يمنعه أحد الاسمين شيء ، لما فيه من إيضاح المعنى ، وتقويم الحروف .

وشهدت قوماً يذهبون الى أن الكلام لا يسمى فصيحاً حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة ، وشدة جزالة . . . » » (٢٩)

وقد سبقت الاشارة الى أنه ربما أراد بالقوم الذين شهدهم يشترطون في الفصاحة هذين الشرطين فضلاً عما سواهما من النعوت التي ذكرها جماعة المعتزلة وقد وقفنا على قول أبي هاشم الجبائي ورأينا إيثاره للفظ الفصاحة على البلاغة واشتراطه فيه ما اشترطه من جزالة اللفظ وحسن المعنى وقد نهج نهجه القاضي عبد الجبار بن أحمد الاسدآبادي — ٤١٥ هـ الذي أورد ماذكره أبو هاشم في فصل خاص ، أعقبه بأربعة فصول قصار ذكر الفصاحة في عنوان كل منها أولها « في الوجه الذي له يقع التفاضل في فصاحة الكلام » (٣٠) والثاني « في بيان السبب

(٢٨) الصناعتين — ٧ — ٨
(٢٩) نفسه — ٨
(٣٠) المغني — ١٩٩/١٦

الذي له يصح الكلام في التفاضل في الفصاحة . » (٣١) والثالث « في أن العلوم التي معها يصح الكلام الفصيح لاتكون إلاضرورية » (٣٢) والرابع « في بيان صحة التحدي بالكلام الفصيح » (٣٣) وقد أوضح فيما ذهب اليهرأي الشيخ أبي هاشم وتلافى ما فيهمن ثغرات فأولى النظم عناية اكبر وخصّ الفصاحة به لا بإفراد الكلمات فقال « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في افراد الكـــلام ، وانما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة . وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالاعراب الذي له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الاقسام الثلاثة رابع ، لأنه اما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها . ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات ،إذا انضم بعضها الى بعض لأنه قد يكون لهـــا عند الانضمام صفة ، وكذلك لـــكيفية إعرابها ، وحركاتها وموقعها فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه ، إنما تظهرمزيةالفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها . » (٣٤)

ولقد آثر ابن سنان الخفاجي — ٤٦٦ هـ أن يعنون كتابه بعنوان « سر الفصاحة » وجاء في مقدمته قوله :

« . . أما بعد : فاني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها أودعت كتابي هذا طرفاً من شأنها ، وجملة من بيانها . . » (٣٥)

وأضاف قائلاً : « اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها ، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته لتقع الرغبة فيه ، فنقول : أما العلوم الأدبية فالأمر في تأثير هذا العلم فيها واضح ، لأن الزبدة منها ، والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ، ونقده ، ومعرفة ما يختار منه مما يكره ، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة ، بل هو مقصور على المعرفة بها ....

---

(٣١) الى (٣٤) بحسب تواليها : المغني ١٦/٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ١٩٩

(٣٥) سر الفصاحة — ٣

وأما العلوم الشـــرعية فالمعجز الدال على نبـــوة محمد نبينا صـــلى الله عليه وعلى آلـه وسلم هو القرآن .. والخلاف الظاهر فيما به كان معجزاً على قولين:

احدهما أنه خرق العادة بفصاحته، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حيّةً .

وليس للذاهب الى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر .

القول الثاني أن وجه الاعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة ، مع أن فصاحة القرآن كانت في مقـــدورهم لولا الصرف. وأمر القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة الى تحقق الفصاحة ماهي ، ليقطع على أنها كانت في مقدورهم ، من جنس فصاحتهم . . . فالدواعي الى معرفة ذلك قوية ، والحـــاجة ماسة شديدة » (٣٦) وهو بعد هذا كله حصر الفصاحة بالظهور والبيان وقصرها على الألفاظ فقال « الفصاحة : الظهور والبيان ، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته ، وفصح ، فهو فصيح ، قال الشاعر :

وتحت الرغـوة اللبن الفصيـح

ويقال أفصح الصبح ، إذا بدا ضوؤه ، وأفصح كل شيء إذا وضح. وفي الكتاب العزيز (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فارسله معي) وفصح النصارى : عيدهم . وقد تكلمت به العرب . قال حسان بن ثابت :

ودنا الفصح فالولائد ينظمـن سراعاً أكلـة المرجـان

ويجوز أن يكون ذلك لاعتقادهم أن عيسى عليه السلام ظهر فيه . . وسمي الكلام الفصيح فصيحاً ، كأنهم سموه بياناً لاعرابه عما عبر به عنه ، واظهاره لـه إظهاراً جلياً . روي عن النبـــي صلى الله عليه وآله أنه قال « أنا أفصح العرب بيد أني من قريش » .

---

(٣٦) سر الفصاحة – ٣ – ٤

والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للالفاظ مع المعاني ، لايقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وان قيل فيها فصيحة . وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً ، كالذي يقع فيه الاسهاب في غير موضعه . . .

وفي البلاغة أقوال غير خارجة على هذا النحو ، واذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزأيها ، فكلامي على المقصود — وهو الفصاحة — غيير متميز إلا في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما . . . » (٣٧)

وهذا الذي انتهى إليه يختلف اختلافاً ظاهراً عما بدأ به ، فأين يكون هذا الذي انتهى اليه من حصر الفصاحة بالظهور والبيان وقصرها على الألفاظ وعدها شطراً من البلاغـــة ، وما كان قد ذهب اليه في قوله : والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ، ومعرفة ما يختار منه مما يكره ، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة ، بل هو مقصور على المعرفة بها ، وحصر إعجاز القرآن الكريم في الفصاحة لافي البلاغة ، مع ماذهب الى تقريره من أن كل كلام بليغ فهو فصيح وليس كل فصيح بليغا . (٣٨)

ولست بصدد نقد كتابه ، فله قيمته التي لاتجحد في دراسة الحروف وتأليف الألفاظ وما يستساغ منها ويستقبح ، ويتآلف ويتنافر ، ولكن حديثه عن مفهوم الفصاحة وحدها لايتناسب وعنوان الكتاب والأهمية التي ذكرها لها في بدايـة حديثه عنها ، مع أنه لم يكد يبق شيئا من شـــروط الفصاحة إلا اشار اليه ، ولكن حقيقة الفصاحة وماهيتها شيء وشروطها شيء آخر .

واذا ما انتقلنا الى الشيخ عبد القاهر الجرجاني — ٤٧١ هـ رأينا له حديثاً عن الفصاحة لايكاد يفي به إلابحث خاص فقد ذكر الأصل اللغوي لها بعد أن أوضح قصور ماقيل فيها إذا قيس بما قيل في غيرها من العلوم فقال :

(٣٧) سر الفصاحة — ٥٩ - ٦١ (٣٨) نفسه — ٣ وما بعدها

« واعلم أنك لاترى في الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بَدِيئاً وأخيراً على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان ، أما البديء فهو أنك لاترى نوعاً من أنواع العلوم إلاواذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس ، وجدت العبارة فيه اكثر من الاشارة والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا ، فانك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه ، وجدت جُلَّه أو كله رمزاً ووحياً ، وكناية وتعريضاً ، وإيماء الى الغرض من وجه لايفطن له إلا من غلغل الفكر ، وأدق النظر ، ومن يرجع طبعه الى ألمعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها الى الخفي ، حتى كأن بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها ، وبادية الصفحة لاحجاب دونها ، وحتى كأن الافصاح بها حرام ، وذكرها إلاعلى سبيل الكناية والتعريض غير سائغ .

وأما الأخير ، فهو أنّا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء ومن العلوم أن يحفظوا كلاماً للاولين ، ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى ، ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم إن سُئلوا عنه بيان له وتفسير ، إلا علم الفصاحة ، فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء ، وعبارات من قبل أن يعرفوا لها معنى أصلاً ، او يستطيعوا ان يُسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح . . .

ولقد بلغ من قلة نظرهم أن قوماً منهم لما رأوا الكتب المصنفة في اللغة قد شاع فيها أن توصف الألفاظ المفردة بالفصاحة ، ورأوا أبا العباس ثعلباً قد سمى كتابه « الفصيح » مع أنه لم يذكر فيه إلا اللغة والألفاظ المفردة — وكان محالاً إذا قيل : إن الشمع بفتح الميم أفصح من الشمع باسكانه أن يكون ذلك من أجل المعنى . إذ ليس تفيد الفتحة في الميم شيئا في الذي سمي به — سبق الى قلوبهم ، أن حكم الوصف بالفصاحة أينما كان وفي أي شيء كان أن لايكون له مرجع الى المعنى البتة ، وأن يكون وصفاً للفظ في نفسه ومن حيث هو لفظ ،

ونطق لسان . ولم يعلموا أن المعنى في وصف الألفاظ المفردة بالفصاحة : أنها في اللغة أثبت ، وفي استعمال الفصحاء اكثر ، أو أنها أجرى على مقاييس اللغة ، والقوانين التي وضعوها .

وأن الذي هو معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الابانة عن المعنى ، بدلالة قولهم : فصيح وأعجم . وقولهم : أفصح الأعجمي . وفصح اللحان ، وأفصحّ الرجل بكذا : إذا صرح به . . (٣٩)

ولهذا سخر من تصور تفاضل الألفاظ المفردة في دلالاتها فقال :

« هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة ، حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ماهي موسومة به ، حتى يقال : إن (رجلاً) أدل عـلى معناه من (فرس) على ماسمي به؟ ، وحتى يتصور في الاسمين الموضوعين لِشَيْءٍ واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنـه ، وأبين كشفاً عن صورته من الآخر ؟ فيكون (الليث) مثلاً أدل على السبع المعلوم من (الاسد) ، وحتى أنا لو أردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة (رجل) أدل على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسية ؟ وهل يقع في وهم — وان جهد — أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم باكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن ؟ ومما يكـد اللسان أبعـد ؟ . . (٤٠)

وهذا الذي ذكره خير ما يوضح عدم تفاضل الألفاظ المفردة في وضوح دلالاتها ، وتفاضلها انما يمكن ان يكون في خلوصها من الثقل والتنافر والغرابة وما الى ذلك مما صرح به ونص عليه من الألفة والخفة وائتلاف الحروف .

---

(٣٩) دلائل الاعجاز — ٣٤٩ — ٣٥٣

(٤٠) نفسه — ٣٥ — ٣٦

فلو أنه ذهب بالفصاحة الى الخلوص والصفاء والنقاء لما انتهى الى دفع الفصاحة عن الألفاظ المفردة . ولما كانت به حاجة الى أن يجهد نفسه من غير أن يفلح في دفعها عن الألفاظ المنتظمة كلاماً مع ما ذهب إليه من أن تعلق الفصاحة باللفظ شبهة ضعيفة فقال :

« وهذه شبهة اخرى ضعيفة ، عسى أن يتعلق بها متعلق ممن يقدم على القول من غيره رويّة . وهي أن يدعى أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي ، وتعديل مزاج الحروف ، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان ، كالذي انشده الجاحظ من قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وقول ابن يسير :

لم يضرها والحمد لله شيءٌ وانثنت نحو عزف نفس ذهول

قال الجاحظ : فتفقد النصف الأخير من هذا البيت ، فانك ستجد بعض الفاظه تتبرأ من بعض . ويزعم أن الكلام في ذلك على طبقات : فمنه المتناهي في الثقل ، المفرط فيه كالذي مضى ، ومنه ما هو أخف منه ، كقول أبي تمام .

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي واذا مالمته ، لمته وحدي

ومنه ما يكون فيه بعض الكلفة على اللسان ، الإ أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ، ويشهر أمره في ذلك ، ويحفظ عليه . ويزعم أن الكلام إذا سلم من من ذلك ، وصفا من شوبه ، كان الفصيح المشاد به ، والمشار إليه . وأن الصفاء أيضاً يكون على مراتب يعلو بعضها بعضا ، وأن له غاية ، إذا انتهى اليها كان الاعجاز .

والذي يبطل هذه الشبهة — إن ذهب اليها ذاهب — أنّا ان قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك ، وجعلناه المراد بها ، لزمنا أن نخرج الفصاحة من حيز البلاغة ، ومن أن تكون نظيرة لها . واذا فعلنا ذلك لم نخل من أحد أمرين :

إما أن نجعله العمدة في المفاضلة بين العبارتين ، ولا نعرج على غيره ، وإما أن نجعله أحد ما نفاضل به ، ووجها من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام . فان أخذنا بالأول ، ازمنا أن نقصر الفضيلة عليه ، حتى لا يكون الاعجاز إلا به ، وفي ذلك من الشناعة ما لا يخفى ، لأنه يؤدي الى أن لا يكون للمعاني التي ذكروها في حدود البلاغة من وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وتصحيح الأقسام ، وحسن الترتيب والنظام ، والابداع في طريقة التشبيه والتمثيل ، والاجمال ثم التفصيل ، ووضع الفصل والوصل موضعهما ، وتوفية الحذف والتأكيد ، والتقديم والتأخير شروطها — مدخل فيما له كان القرآن معجزاً ، حتى ندعي أنه لم يكن معجزاً من حيث هو بليغ ، ولا من حيث هو قول فصل ، وكلام شريف النظم بديع التأليف ، وذلك أنه لا تعلق لشيء من هذه المعاني بتلاؤم الحروف .

وإن أخذنا بالثاني ، وهو أن يكون تلاؤم الحروف وجهاً من وجوه الفضيلة ، وداخلاً في عداد ما يفاضل به بين كلام وكلام ، على الجملة ، لم يكن لهذا الخلاف ضرر علينا ، لانه ليس باكثر من أن يعمد الى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان ، وأن تكون نظيرة لهما ، وفي عداد ما هو شبههما من البراعة والجزالة واشباه ذلك ، مما ينبيء عن شرف النظم ، وعن المزايا التي شرحت لك أمرها ، وأعلمتك جنسها ، أو يجعلها اسماً مشتركا ، يقع تارة لما تقع له تلك ، وأخرى لما يرجع الى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده . » (٤١)

وهكذا انتهى من دفع هذه الشبهة الضعيفة كما نعتها — بعدطول العناء — الى التسليم التام بامكان إطلاق الفصاحة على تلاؤم حروف الألفاظ وسلامة اللفظ أو خلوصه مما يثقل على اللسان ، وإمكان عدها — إن أريد بها الخلوص أو

(٤١) دلائل الاعجاز — ٤٥ — ٤٧

السلامة – وجهاً مما يفاضل به بين كلام وكلام . وأن الفصاحة بهذا المفهوم لا تكلفنا اكثر من أن لا نجعلها نظيرة للبلاغة . وعلام نجعلها نظيرة لها ولا نكتفي بعدّها ضرورة لازمة لها تؤخذ بنظر الاعتبار في المفاضلة بين كلام وكلام. وعندها يكون القرآن الكريم معجزاً بفصاحته وبلاغته أو ببلاغته المتضمنة لفصاحته أي أنه معجز بالنظم والمنظوم كليهما وهذا اولى من القول باعجازه في النظم دون المنظوم أو بالبلاغة المناظرة للفصاحة ، ولكن الشيخ عبدالقاهر آثر أن يجعل الفصاحة – مع معرفته الدقيقة بها ومناقشته العميقة المستفيضة لأبرز ما قيل فيها – نظيرة البلاغة والبيان والبراعة وما إليها فقال :

« في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة ، وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم .. » (٤٢)

فهو وما آثره ، فما آثر هذا الذي آثره الا لأشعريته ، لا لجهله بما بين لفظ الفصاحة والبلاغة من تباين لغة واصطلاحاً ، ولا لعدم الحدود بينهما ، فليس لمن هو أقل شأناً منه أن تختلط عليه حدودهما فضلاً عنه ومعروف من هو الشيخ عبدالقاهر الجرجاني علما وفطنة ، وقد رأينا أن الذين سبقوه كانوا قد فرقوا بين البلاغة والفصاحة بما علمه علم خبير به ، وجادل فيه جدال القدير المتمكن ، وفي الذي اوردناه له ما يدل على هـــذا دلالة واضحـــة . وأما فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) فقد نص على الخلوص في تعريفه للفصاحة فقال : « .. وأما الفصاحة فهي خلوص الكلام من التعقيد . وأصله من الفصيح ، وهو اللبن الذي أخذت عنه الرغوة ، أو ذهب لبؤه . وقد فصح وأفصح : إذا صار كذلك . وأفصحت الشاة : إذا فصح لبنها ، ثم قالوا : فصح الأعجمي

---

(٤٢) دلائل الاعجاز – ٣٥ .

فصاحة ، فهو فصيح : إذا خلصت لغته من اللكنة » (٤٣) .

وتابع الشيخ الجرجاني فيما سوى هذا من تعلق الفصاحة والبلاغة بالافادة المعنوية لا اللفظية التي يستحيل تطرق الكمال والنقصان اليها حيث قال « ثم إن المقصود من الابحاث المتعلقة بالدلالة اللفظية فتنحصر في أمرين (احدهما) : استقصاء القول في أن الفصاحة والبلاغة لا يجوز عودهما الى الدلالة اللفظية .

(والآخر) : في بيان أن الفصاحة ، وان كانت غير عائدة الى الدلالة اللفظية لكن من الأمور العائدة الى جوهر اللفظ والى دلالته الوضعية ما يفيد الكلام كمالاً وزينة وجمالاً . . » (٤٤)

وقــد تابع السكاكي ـ ٦٢٦هـ ـ فخرالدين الرازي وعبدالقاهر الجرجاني فيما ذهب اليه فقال :

« وأما الفصاحة فهي قسمان : راجع الى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعقيد ، وراجع الى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية ، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب ، الموثوق بعربيتهم أدور ، واستعمالهم لها اكثر ، لا مما أحدثها المولدون ، ولا مما أخطأت فيه ، وأن تكون أجرى على قوانين اللغة وأن تكون سليمة من التنافر .

والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثّر صاحبه فكرك في متصرفه ، ويشيك طريقك الى المعنى ويوعر مذهبك نحوه ، حتى يقسم فكرك ، ويشعب ظنك ، الى أن لا تدري من أين تتوصل وبأي طريق معناه يتحصل ، كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس الا مملكاً   أبو أمه حيّ أبوه يقاربه. » (٤٥)

وقال ضياء الدين بن الاثير ـ ٦٣٧ هـ

« اعلم أن هذا باب متعذر على الوالج ، ومسلك متوعر على الناهـج ،

---

(٤٣) نهاية الايجاز ـ ٩   (٤٤) نفسه ـ ١١   (٤٥) المفتاح ـ ٢٢١

ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه ، والبحث عنه ، ولم أجد من ذلك ما يعوّل عليه الإ القليل .

وغاية ما يقال في هذا الباب أن الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي . يقال : أفصح الصبح : إذا ظهر : ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه ، وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحـــة ، لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات :

احدها : أنه اذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيناً لم يكن فصيحاً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً .

الوجه الآخر : انه اذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البَيِّن ، فقد صار ذلك بالنسب والاضافات الى الاشخاص ، فان اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ، ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فهو إذاً فصيح عند هذا ، وغير فصيح عند هذا ، وليس كذلك ، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع ، لاخلاف فيه بحال من من الاحوال ، لانه إذا تحقق حد الفصاحة ، وعرف ما هي ، لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف .

الوجه الثالث : انه اذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بيّن ، ينبغي أن يكون فصيحاً . وليس كذلك ، لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ ، لا وصف ، قبح فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل : إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل .

ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ،لكتني الحيرة فيها ، ولم يثبت عندي منها ما أعوّل عليه ، ولكثرة ملابستي هذا الفن ، ومعاركتي إياه ، انكشف لي السر فيه ، وسأوضحه في كتابي هذا ، وأحقق القول فيه فأقول :

ان الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، وأعني بالظاهر البين أن تكون الفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها الى استخراج من كتاب لغة ، وانما كانت

بهذه الصفة لانها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم وانها . دائرة في كلامهم ، وانما كانت مألوفة دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها ، وذلك أن ارباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا ، فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفروا القبيح منها فلم يستعملوه . فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها ، ظهورها وبيانها . فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسن .

فان قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه . وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه ؟

قلت في الجواب : ان هذا من الامور المحسوسة التي شاهدها من نفسها ، لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فالذي يستلذه السمع منها ، ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه ، وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير ، وصوت الشحرور ، ويميل إليها ، ويكره صوت الغراب ، وينفر عنه .. » (٤٦)

وهكذا أجهد ابن الأثير نفسه من غير ما طائل ، فما ذهب أحد الى أن الفصحاحة غير الحسن ، ولو أنه وقف على حقيقة الفصاحة في أصل الوضع اللغوي ، لرأى انها الخلوص والنقاء والصفاء ، وأن الحسن — لهذا — ملازم لها من الوضع اللغوي ، وقد ذكر هذا الخلوص والنقاء والصفاء علماء اللغة الأوائل كالخليل وأبي عبيدة والأصمعي وابن الاعرابي وغيرهم ممن عاصرهم وجاء بعدهم ، فلو أنه أخذ بهذا لأعفى نفسه من كل هذا الجهد والعناء ، غير أنه ذهب الى الابانة والوضوح فأشكل عليه ما اشكل فأجهد نفسه في التماس العلاقة بين الابانة والحسن لكون الفصاحة نعتاً حميداً ، فأنهى الى ما ينازع فيه من جزمه بأن الفصاحة الابانة ، وأن أرباب النظم والنثر هم

(٤٦) المثل السائر — ١/١١٢ — ١١٥

الذين اختاروا الألفاظ الفصيحة ، واكثروا من استخدامها ، فبانت معانيها ، وكأن غيرهم من الناس لم يوهبوا القدرة على مجرد استحسان الحسن واستقباح القبيح من الاشياء وخص بهـــذا أرباب النظم والنثر وحدهم . وهو بعد هذا وذاك كان قد اقتصر في حديثه على فصاحة اللفظة المفردة دون المنتظمة في كلام فصيح ، ودون المتكلم .

وأما ابن الزملكاني — ٦٥١ هـ فلم يتحدث عن طبيعة الفصاحة ، واكتفى بتقسيم الكلام الفصيح على قسمين قائلا :

« القانون الرابع في معرفة الفصاحة : الكلام الفصيح لا يعدو قسمين : قسم تعزى المزية فيه الى اللفظ المفرد ، وقسم تعزى المزية فيه الى النظم ، فالأول الكناية والتمثيل الجاري على حد الاستعارة ، وكل ما كان فيه مجاز واتساع ، فمتى وقع ضرب من ذلك على شريطته اقتضى المزية .... — وأما ما تعزى المزية فيه الى النظم فهو الذي عقد له الركن الثاني . » (٤٧) فهو في هذا متابع للجرجاني متابعة تامة . وتابع شهاب الدين محمود الحلبي — ٧٢٥ هـ ما ذهب إليه الرازي في كون الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد . وإن كان قد أفاد مما ذهب اليه الأقدمون في كثير مما يشين اللفظ فقال : « والفصاحة : خلوص الكلام من التعقيد . وقيل : البلاغة في المعاني ، والفصاحة في الألفاظ . يقال . معنى بليغ ، ولفظ فصيح .

والفصاحة خاصة تقع على المفرد ، يقال : كلمة فصيحة ، ولايقال بليغة وأنت تريد المفرد ، فانه يقال للقصيدة كلمة ، كما قالوا : كلمة لبيد .

ففصاحة المفرد : خلوصه من تنافر الحروف ، كقول أعرابي سئل عن ناقته : (تركتها ترعى الهعخع) . وكقول امرئ القيس : (ذوائبه مستشزرات الى العلى) .. ومن الغرابة ، وهي أن تكون الكلمة وحشية ، كمـــا قال عيسى

(٤٧) التبيان — ١٥٩ — ١٦٠

ابن عمر النحوي ، وقد سقط عن دابته : (مالكم تكأكأتم علي تكأكؤكم على ذي جِنّة ، افرنقعوا عني) ، أي : اجتمعتم عَلَيَّ ، تَنَحّوا ..

ومن مخالفة القياس كقول الراجز : « الحمد لله المليك الأجلل » فان القياس الادغام . وأما فصاحة الكلام : فهي : خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات والتعقيد ، فالضعف كما في قول الشاعر :

جزى ربه عني عَدِيَّ بنَ حـــاتم جزاء الكلاب العاويات ، وقد فعل

فان رجوع الضمير الى المفعول يلزم منه رجوعه الى ما هو متأخر لفظاً ورتبة» .

والتنافر كقول القائل : « وليس قربَ قبر حرب قبر »

والتعقيد كقول الفرزدق :

وما مثله في الناس الإ مملكـــاً أبو أمه حَيٌّ أبوه يقاربـــه

أراد أن يقول : وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا ملكا أبو أمه أبوه .»(٤٨)

وذهب النويري — ٧٣٣ هـ الى أن الفصاحة الخلوص أيضاً فقال : « وأما الفصاحة فهي مأخوذة من قولهم : أفصح اللبن : إذا أخذت عنه الرغوة . وقالوا : لا يسمى الفصيح فصيحا حتى تخلص لغته من اللكنة الاعجمية ، ولا توجد الفصاحة إلا في العرب . وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة في الألفاظ ، والبلاغة في المعاني ، ويستدلون بقولهم : لفظ فصيح ، ومعنى بليغ ، ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد في الألفاظ والمعاني ، والاكثرون عليه » (٤٩) . ولم يأت القزويني — ٧٣٩ هـ باكثر مما جاء به الذين سبقوه ، وآخرهم الحلبي فلم يزد في تلخيصه على قوله :

(٤٨) حسن التوسل — ١٠٣ — ١٠٤

(٤٩) نهاية الارب — ٦/٧ — ٧

« الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم . والبلاغة يوصف بها الأخيران فقط فالفصاحة في المفرد : خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس .

فالتنافر نحو : « غدائره مستشزرات الى العلى » والغرابة نحو « وفاحماً ومرسناً مسرَّجا » أي كالسيف السُّرَيجي في الدقة والاستواء ، أو كالسِّراج في البريق واللمعان . والمخالفة نحو : « الحمد لله العلي الأجلل » .

قيل : ومن الكراهة في السمع نحو : « كريم الجرشّى شريف النسب » وفيه نظر . وفي الكلام : خلوصه من ضعف التأليف . وتنافر الكلمات ، والتعقيد ، مع فصاحتها ، فالضعف نحو : ضرب غلامُهُ زيداً . والتنافر كقوله : « وليس قرب قبر حرب قبر »

وقوله :

« كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي واذا ما لمته لمته وحدي »

والتعقيد : أن لا يكون الكلام ظاهراً على المراد لخلل ، إما في النظم ، كقول الفرزدق في خال هشام :

« وما مثله في الناس إلا مملكـا ابو أمـه حيٌّ أبوه يقاربه »

أي : ليس مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه .

وإما في الانتقال ، كقول الآخر :

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فان الانتقال من جمود العين الى بخلها بالدموع ، لا الى ما قصده من السرور .

قيل : ومن كثرة التكرار وتتابع الاضافات ، كقوله : « سبوح لها منها عليها شواهد » وقوله : « حمامة جرعا حومة الجندل اسجعي » وفيه نظر .

وفي المتكلم : ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح » (٥٠) .

ولم يزد في ايضاحه على هذا الذي ذكره في تلخيصه غير ما يقتضيه الايضاح من الشرح ، فليس له أن يقول : « للناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة لم أجد فيما بلغني منها ما يصلح لتعريفهما به ، ولا ما يشير الى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام ، وكون الموصوف بهما المتكلم ، فالأولى أن نقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين فنقول : كل منهما تقع صفة لمعنيين ... » (٥١) فقد قال الذين سبقوه ما قاله هو من غير ما زيادة يمكن أن تحسب له .

ولقد فسر العلوي — ٧٤٩ هـ الفصاحة لغة بالبيان والظهور ، واصطلاحاً بالخلوص فقال : « الفصاحة — في اللغة — عبارة عن البيان والظهور . يقال :

أفصح العجمي : اذا خلص كلامه عن اللكنة واللحن . وأفصح اللبن : اذا ذهب عنه اللبأ ، وزالت عنه الرغوة ، وأفصحت الشاة : إذا صفا لبنها عما يشوبه ، وأفصح الصبح : إذا ظهر وعلا ضوؤه . وفيه المثل : وأفصح الصبح لذي عينين » .

وفي مصطلح علم البيان : خلوص اللفظ عن التعقيد في تركيب الأحرف والألفاظ جميعاً ، فمتى سلمت اللفظة الواحدة عن تنافر تركيبها ، ولم تكن من قبيل قولنا : عقجق ، ولا من قولهم : (الهعخع) وهو شجر ، وسلم تركيب الألفاظ عن التنافر أيضاً ، كما قيل :

(وليس قرب قبر حرب قبر) ... » (٥٢) .

وحدّ ابن قيم الجوزية — ٧٥١ هـ الفصاحة بأنها الخلوص من التعقيد

---

(٥٠) التلخيص — ٢٤ — ٣٢ ، وانظر الايضاح ١/٦٥ — ١٢١

(٥١) الايضاح — ١/٦٥ — ٦٦

(٥٢) الطراز — ١/١٠٣ — ١٠٤

فقال : « وأما الفصاحة : فهي خلوص الكلام من التعقيد ... قالوا : اشتقاقها من الفصيح : وهو اللبن الذي أخذت منه الرغوة وذهب لبؤه ، يقال : فصح الرجل إذا صار كذلك ، وأفصحت الشاة : إذا فصح لبنها ... وقال قوم من أرباب علم البيان : الفصاحة والبلاغة متعاقبان على معنى واحد ... وقال قوم : البلاغة في المعاني . والفصاحة في الألفاظ ، يقال معنى بليغ ، ولفظ فصيح .

وليست الفصاحة والبلاغة مختصين بالألفاظ العربية ، وانما يطلقان على كل ما لفظه غريب ، وفهمه قريب . » (٥٣) .

ولم يأت شراح التلخيص بأكثر مما جاء به القزويني غير مناقشتهم المنطقية العقيمة لتفسيره الفصاحة في المفرد بخلوصه ... وما في هذا التفسير من تسامح ، لانه تعريف بالأمور العَدَمِيَّة ، والتعريف انما يكون — كما ذهبوا — بالذاتيات . أو الخواص الوجودية . وانتهائهم بعد كل الذي أوردوه في في مناقشتهم الى جواز التعريف (٥٤) .

كما أنهم — ما سوى السبكي منهم — أشاروا الى ما لم يشر إليه القزويني ولا السكاكي من أن الفصاحة في اللغة أو في الأصل تنبئ عن الظهور والابانة .

فقال التفنازاني — ٧٩١ هـ : « الفصاحة : وهي في الأصل تنبئ عن الظهور والابانة » (٥٥) وعقب الدسوقي — ١٢٣٠ هـ على هذا بقوله :

« قوله (في الأصل) أي في اللغة ، لما كان الواقع في كتب اللغة ذكر معان متعددة للفصاحة ، وكلها يدل على الظهور ، ولما لم يتحقق الشارح من

---

(٥٣) الفوائد — ٩

(٥٤) انظر عروس الأفراح ، ومختصر السعد ، ومواهب الفتاح ، وحاشية الدسوقي ، كلها ضمن شروح التلخيص — ٧٦/١ — ٧٧

(٥٥) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص

تلك المعاني ، الحقيقي من المجازي لما وقع في ذلك من الاختلاف والاشتباه أتى في بيانها – أي الفصاحة – بما يجمع معانيها الحقيقية والمجازية ، وهو الانباء عن الظهور والابانة » (٥٦) .

وقال المغربي – ١١١٠هـ :

« الفصاحة : وهي في اللغة لا تخلو عن معنى الظهور ، فيكون فعلها لازماً ، كقولهم : فصح اللبن إذا ظهر من رغوته . أو عن الابانة فيكون فعلها – في المعنى – متعـدياً ، كأفصح الاعجمي : أبان مراده . ونقلت – عرفاً – الى وصف الكلمة والكلام والمتكلم ، لا يخلو ذلك الوصف من وضوح وظهور ، فهي حقيقة عرفية » (٥٧) .

ولقد عرف الشريف الجرجاني – ٨١٦ هـ الفصاحة – لغة – بالابانة والظهور فقال : الفصاحة في اللغة عبـارة عن الابانة والظهور .. وهي في المفرد : خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس . وفي الكلام خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات مع فصاحتها ... وفي المتكلم : ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح . » (٥٨) .

واكتفى السيوطي – ٩١١ هـ بما ذهب إليه القزويني فلم يشر الى أصل الفصاحة اللغوي . ولم ينبه على ما نبه عليه الذين داروا في فلك التلخيص من تسامح في تفسير الفصاحة بالخلوص . (٥٩)

أما المحدثون والمعاصرون من المعنيين بالبلاغة فقد ذهب اكثر الذين تحدثوا عن الفصاحة – ان لم أقل كلهم – الى ربطها بالابانة أو الظهور فقال المراغي :

---

(٥٦) حاشية الدسوقي
(٥٧) مواهب الفتاح
(٥٨) التعريفات – ١٤٦
(٥٩) عقود الجمان – ٤ – ٨

« للفصاحة لغة معان متعددة ، كلها تشف عن الظهور والابانة ..» (٦٠)

وقال علي الجارم ومصطفى أمين :

« الفصاحة : الظهور والبيان .. » (٦١) .

وقال الهاشمي :

« الفصاحة تطلق في اللغة على معان كثيرة ، منها البيان والظهور ... والفصاحة في اصطلاح أهل المعاني : عبارة عن الالفاظ البينة الظاهرة ، المتبادرة الى الفهم ، المأنوسة الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنها . وهي تقع وصفاً للكلمة والكلام والمتكلم . . » (٦٢) .

وقال محمد السباعي :

« الفصاحة في اللغة تنبئ عن البيان والظهور ... والفصاحة تأتي وصفاً للكلمة والكلام والمتكلم . فيقال : ان الكلمة فصيحة عندما تكون خالصة من الشوائب » (٦٣) .

وقال الدكتور جميل سعيد :

« والفصاحة في اللغة البيان والظهور .. هذه هي الفصاحة في اللغة : وضوح وبيان ، والبلاغيون قد اطلقوها على التعبير حين يكون واضحاً بينا ... ونرى من كلام ابن سنان هذا أن الكلام عندهم لا يوصف بالفصاحة الا اذا كان واضحاً مفهوما .. » (٦٤) .

وقال الدكتور أحمد مطلوب :

« .. وفي هذا يتضح معنى البيان والظهور في كلمة (الفصاحة) . وليس

---

(٦٠) علوم البلاغة – ١٧

(٦١) البلاغة الواضحة – ٥ (٦٢) جواهر البلاغة – ٦ – ٧

(٦٣) البيان في اعجاز القرآن – ١٩ .

(٦٤) دروس في البلاغة وتطورها – ١٠٤ – ١٠٦

هذا المعنى بالبعيد عن الدلالة الاولى ، ولا عن المعنـــى الذي اصطلح عليه علماء البلاغة ، وهو رقة الألفاظ وجمالها . أو بيان التعبير ووضوحه »(٦٥) .

واكتفى الدكتور بدوي طبانة بما نقله فيها عن أبي هلال العسكري من غيرما تمهيد له أو تعقيب عليه ، وتابع القزويني في فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم (٦٦) واذا كان الايضاح في الفصاحة قد اشكل على ابن الاثير — اذ رأى أن ليس كل واضح من الكلام فصيحا — فانتهج منهجاً انتهى به الى التوفيق بينهما بما أرضاه ، فقـــد استوقف هذا الايضاح استاذي الدكتور عبدالرزاق محيي الدين فانتهى الى أن اشتراط الوضوح في الفصاحة غير وارد ، ومفروض لا تؤيده أرقى النصوص الفصيحة ، وتحدث في هذا وأطال الحديث قائلا :

« في مقدمة ما تدور في نفسي مراجعته هذان المصطلحان : كلمتا (الفصاحة) و (البلاغة) ، ماذا تعنيان ، وبأي شروط يتحقق مفهومهما ، وما واقع الصلة بين هذا المفهوم في حدود شروطه بالآثار الأدبية قديماً وحديثاً ، وهل هناك احساس بالصلة بينهما وبين الأثر الأدبي عن الحكم عليه ؟؟ .... فالفصاحة — كما هو معلوم — كانت تستعمل بمعنى البلاغة ، والبلاغة كانت تستعمل بمعنى الفصاحة ، والبيان يعني أحدهما ، والاثنين معاً احيانا ، وربما قام مقامهما الايضاح والبراعة والبديع . واستمر هذا التداخل في مفهوم المصطلحين عهدا لا يقل عن مائتي عام ، منذ تلمست أصول هذا العلم الى أن استقرت على يد البلاغيين في القرن الخامس الهجري فما يليه .

---

(٦٥) مصطلحات بلاغية — ١٠ ، اساليب بلاغية — ١٢ ، البلاغة العربية — ٣٠ ، البلاغة والتطبيق — له بالاشتراك مع الدكتور حسن البصير ٣٦ ، انظر البلاغة للصفين الرابـع والخامس الاعداديين للمدارس الاسلامية — له بالاشتراك مع الدكتور حامد ملاحويش ، وعبد الرضا صادق — ١٥

(٦٦) معجم البلاغة العربية — ٦٤٣/٢ — ٦٤٧

وكان ما انتهى إليه الأمر في كلمة (الفصاحة) مصطلحاً بلاغياً أن كانت صفة للفظ المفرد ، وللألفاظ المؤلفة ، وهي تعني فيهما الوضوح والظهور والابانة . ولتحقيق الوضوح اشترط خلوص المفردة من تنافر الحروف ، ومخالفة القياس الصرفي ، ومن الغرابة . واشترط خلوص الكلام من ذلك ، ومن مخالفة القواعد النحوية المستقرة ، ومن التعقيد اللفظي والمعنوي ...

ونبدأ الآن بالكلام على مصطلح الفصاحة بالمعنى الذي قرر له ، وهي أن تكون الكلمة ظاهرة المعنى شائعة الاستعمال فيه على وجه لا يحتاج فهمها الى جهد ، أو تنقير في كتب اللغة .

وقبل مناقشة قضية الوضوح لابد من تقديم ملاحظة حرية بالتركيز والعناية وهي اننا نستعمل مصطلح الفصاحة من أجل وصف النص الادبي بصفة الجودة والتميز عن الكلام المبتذل السائر الخالي من الخصائص البيانية ... ان الذي بين أيدينا من نصوص عربية ما كان منها جاهلياً قبل ظهور الاسلام واسلامياً بعد ظهوره ، ثم ما جرى على منوالها من روائع النثر وبديع الشعر ليس بالذي لا نحتاج في فهم مفرداته الى بذل جهد ، ولا بالذي لا نحتاج في استجلائه الى تفسير وتلق أحيانا .

ونحن على غير يقين في أن يكون العرب ، غالب العرب في الجاهلية يفهمون مفردات المعلقات ، ويدركون معانيها ، بحيث لا يحتاج قسم منهم الى من يشرح له مفرداتها فيما تعنى ، والابيات فيما ترمي إليه .

إننا إذ نفترض للعربي في الجاهلية هذا الفهم الواسع والاحاطة الشاملة بمعاني المفردات ، والادراك الأدبي لخصائص القول نكون قد افترضنا لكل منهم قاموساً لغوياً واسعاً يتحدث به ، أو يتحدث إليه به يقارب في سعته القواميس الموسعة التي تشرح المفردات الواردة في الأدب العربي ، والاسرار البلاغية التي كشف عنها الاعلام الدارسون بعد دراسة عشرات من السنين .

ان القرآن الكريم على ما تميز به واختص به من وضوح ، وما اختارت العناية الالهية له من الفاظ شائعة وناصعة ما كان بعض العرب المسلمين يغنون عن تفسير بعض مفرداته أو تفسير بعض متشابهه . ولقد ظهر التفسير بالرواية في صدر الاسلام قبل التفسير بالدراية وهو عادة تفسير لمعاني المفردات القرآنية والآي الكريم عن طريق السماع وليس عن طريق الفهم الشخصي .

وكانوا يلجأون الى التفسير بالرواية تورعاً وتأثما من الاجتراء على تفسير المفردة ، أو معنى الآية بحملها عن طريق الفهم الشخصي ، وهذا يكشف عن أن الوضوح المطلق ، وظهور المعنى لدى العرب كافة أمر متعذر الحصول ، ولم يتفق للنصوص الأدبية في عصورها التي ظهرت فيها فضلاً عن العصور التي تلتها .

لقد ألفت في غريب القرآن الكريم وفي غريب الحديث كتب كثيرة ، ولم يك كل ذلك في تبيان المعاني المجازية فيه ، بل كان بعض منها معنياً بشرح المفردات اللغوية ، كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة .... وهذا يؤكد أن الوضوح الذي اشترطه على البلاغة في المفردات والتركيب ليس منتزعاً من واقع الآثار الأدبية الرفيعة التي يقف القرآن الكريم على قمتها وفي مكان القدوة الممتنعة منها . . . ولست أقصد أن يكون الغموض شرطاً في البيان الذي يبلغ درجة التميز والتفوق ، ولكن البيان المتميز في أفضل الاحوال لن يكون فهمه في متناول الناس كافة ، بل انه لن يكون حتى للممارسين له بهذه الدرجة من المواتاة ، فلابد من اشتراط الوضوح في حدود معاناة ادبية ، وليس باليسر المتناهي الذي نغنى فيه عن البحث في معنى المفردة وعن الخاصة البيانية التي من وراء التعبير .. » (٦٧) .

ومن هذا يتضح أن تفسير الفصاحة بالابانة والايضاح والاظهار كان

(٦٧) مفاهيم بلاغية – ٢– ٦

مبعث اشكال وحيرة وتساؤل ، لغير واحد من المعنيين بالبلاغة ، دعاهم الى الحديث عما بين اللفظ وتفسيره من صلة ، ولوكان الوضوح الذي فسرت به الفصاحة وفيا بمفهومها لما كانت مثل هذه الحيرة والتساؤل ، ولما عدل عن الوضوح الى الخلوص في الحديث عن شروطها ، ولما أدخل البلاغيون في هذه الشروط مالا صلة له بالوضوح أصلا ، وهي كل ما يتصل بالجانب اللفظي أو الصوتي ، وهي اكثر هذه الشروط أو كلها ما سوى غرابة المعنى وسقوطه .

فلو أننا عدلنا عن الوضوح في تفسيرها الى الخلوص لوقفنا على حقيقة لوقفنا مفهومها ، ومهدنا بما يقنع للحديث عن شروطها ، من خلوص من الغرابة والثقل والتنافر واللحن وما إليها من عيوب الكلام ، وأبقينا في الوقت ذاته على الوضوح الذي حرصنا عليه في الحديث عنها ، فدلالة الخلوص على الابانة والوضوح والظهور من تحصيل الحاصل ، فالاشياء لا تظهر وتتضح وتبين كما ينبغي الإ إذا تخلصت مما يشوبها او يحجبها ولتخلصنا بهذا ممـــا في الابانة والوضوح والظهور من قصور في الوفاء بمفهوم الفصاحة ، فما كل واضح بفصيح .

ونحن بهذا لم نبتدع للفصاحة هذه الدلالة ، وإنما هي دلالتها الصحيحة الموروثة ، التي ذكرها علماؤنا ، من مفسرين ولغويين وبلاغيين كما اسفر عنها التحقيق اللغوي الذي أجريناه والاستقراء أو التتبع الذي تتبعناه لأقوالهم فيها وما تفضي اليه . ويكفي في هذا كله مجرد التذكير بما ذهب اليه ابن فارس في دلالة المادة اللغوية (الفاء والصاد والحاء) على خلوص في شيء ، ونقاء من الشوب ، ومتابعة الراغب الاصفهاني له فيما ذهب إليه ، وما يؤيدهما فيه مما ورد في المعاجم اللغوية المؤلفة قبلهما وبعدهما ، كقول العرب : أفصحت الشاة : خلص لبنها ، وافصح البول : صفا ، فضلاً عما نقله ابو عبيدة عن العرب من قولهم للفرس والبعير ان كان صافي الصهيل ، وصافي

الهدير : انه لفصيح الصهيل ، وانه لفصيح الهدير ، فان هذا وحده لا يدع زيادة لمستزيد في دلالة الفصاحة على الخلوص والصفاء والنقاء ، ولو كانت دالة على مجرد الابانة والظهور والوضوح لكان الصهيل ، والهـدير فصيحين عند صفائهما وعدمه .

ولو لم تكن الفصاحة الخلوص لما كان الفصيح : من خلص من الرتة والكشكشة والشنشنة والغمغمة ، والطمطمة ، والتمتمة ، والفأفأة ، والعقلة ، والحبسة ، واللكنة ، واللثغة ، وغيرها من عيوب النطق . ولما عرف البلاغيون فصاحة اللفظ — مفرداً غير منظوم ومركبا منظوماً — بخلوصه من كذا وكذا من عيوب الكلام .

فالفصاحة لغة واصطلاحا انما هي الخلوص والصفاء والنقاء وليست شيئا آخر .

★ ★ ★